قراءة في كتاب
تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب

قراءة: إدارة التحرير[*]

بداية

يصّرح مؤلّف الكتاب الأستاذ جورج قرم -المفكّر والخبير الاقتصاديّ اللبنانيّ وخرّيج جامعة باريس في القانون الدستوريّ والعلوم الاقتصاديّة، معهد الدراسات السياسيّة بباريس -فرع الماليّة العامّة- أنّ هذا المؤلَّف هو نتيجة تساؤل وسواسيّ منذ سنين طفولته عندما أدرك أنّ الدنيا مقسّمة بين «نحن الشرقيّون» و«هم الغربيّون». ولا يخفي نظرته النقديّة، حيث يقول: >كنْتُ أتضايق كثيراً من النرجسيّة في الثقافة والعلوم الإنسانيّة الغربيّة ونظرة التعالي، بلْ والازدراء في كثير من الأحيان، بالنسبة إلى حضارات الشعوب الأخرى ومؤسّساتها وعاداتها<. ويوجّه جانبًا من خطابه النقديّ إلى العديد من المثقّفين العرب؛ لتبنّيهم الكثير من الطروحات الفكريّة والإشكاليّات الغربيّة في النظر إلى تطور التاريخ الإنسانيّ دون ممارسة النقد في الطروحات التي كانت تقدّمها الثقافات الأوروبيّة المختلفة حول عبقريّتها وتفوّقها؛ إذ لم يلتفت هؤلاء إلى أنّ لعبة التصادم بين الشرق والغرب هذه هي لعبة تخيُّليّة ولعبة مرايا خطيرة أطلقتها الثقافة الأوروبيّة الاستعماريّة لتبرير سياسة القوّة والسيطرة على مقدرات العالم.

وفي هذا السياق سعى المؤلّف إلى تحليل ديناميّة أوروبا انطلاقًا من قراءة تاريخها قراءة منهجيّة ونقديّة، فالثقافة الأوروبيّة متنوّعة وفي كثير من الأحيان كانت متناقضة للغاية في تاريخها، وأدّت إلى حروب شعواء ضمن هذه القارّة الصغيرة. إضافة إلى تعدّد الشعوب واللغات والثقافات والتباينات الدينيّة (بين البروتستانت والكاثوليك).

ومن الواضح أنّ المؤلّف قد حدّد هدفه جيّدًا بدراسة مسار التاريخ الأوروبيّ بعيدًا عن كلّ سرديّات تاريخ أوروبا من قبل كبار المؤرّخين والفلاسفة، وعلى رأسهم الفيلسوف الألمانيّ هيغل،

وعالم السوسيولوجيا الألمانيّ أيضًا ماكس فيبير، موجّهًا، وفق منهجه، الكلام بشكل خاصّ إلى استيلاء هذه القارّة الصغيرة على مقدّرات دول أخرى، بل وقد زرعت فسادًا في العالم باستعمارها القارّات الأخرى، مؤكّدًا على ضرورة الخروج من لعبة الصور النمطيّة المتبادلة بين المثقّفين العرب والمثقّفين الأوروبيّين، خاصّة وأنّ الثقافة العربيّة الحديثة قد وقعت ضحيّة التخيُّلات الثقافيّة السياسيّة الأوروبيّة؛ إذ لا بدّ للثقافة العربيّة من التخلُّص من الموقف العاطفيّ الانفعاليّ من الثقافة الأوروبيّة، لكي تتحرّر ثقافتنا من هيمنة المقولات والإشكاليّات الأوروبيّة الفلسفيّة والاقتصاديّة والسوسيولوجيّة المتوغّلة فيها، وتدخل في مرحلة بناء استقلال فكريّ يسمح بوضع نظام معرفيّ وقيّميّ ومرجعيّ مستقلّ عن الصور النمطيّة المتبادلة بين تخيُّلات الغرب حول الشرق وتخيُّلات الشرق حول الغرب. فتصبح ثقافتنا متجذِّرة فعليًّا في الواقع العربيّ ومسيرته التاريخيّة. وهذا بنظر الكاتب هو الخطوة الأولى لإعادة بناء استقلالنا السياسيّ والاقتصاديّ والفكريّ الحقيقيّ على غرار ما تفعله شعوب أخرى، إسلاميّة كانت، مثل تركيا الحديثة أو إيران أو ماليزيا، أم غير إسلاميّة، مثل الهند والصين وكوريا وفييتنام، وقبلها اليابان.

ويقدّم الكاتب تحليلاً موضوعيًّا لتبيان أساليب وأدوات وتقنيات بناء أسطورة وحدة أوروبا ووحدة الغرب بمكوِّناتها وتبريراتها المختلفة، ذلك أنّنا في الشرق العربيّ والإسلاميّ قد بنينا أيضًا العديد من الأساطير متأثّرين بتقنيات الثقافات الأوروبيّة في البناء الأسطوريّ. والكثير من المقولات والمفاهيم الأسطوريّة الطابع التي أُدْخِلَت في صميم ثقافتنا العربيّة المعاصرة لهيَ بمعظم الأحيان متأثِّرة إلى أبعد الحدود بالمفاهيم والمقولات الأوروبيّة، بل قد تكون في بعض الأحيان مجرَّد انعكاس لها، فتندرج في إشكاليّات تاريخيّة وسياسيّة ليست من صنعنا كثقافة عربيّة مستقلّة، بل من نتاج تصدير الإشكاليّات الغربيّة عبر العالم.

في مجال آخر، يجيب الكاتب عن سؤال يرتبط بتلك اللفظة: «الغرب»، وما يرتبط به جغرافيًّا ومعرفيًّا وديموغرافيًّا...، وكيفيّة انبثاق مفهوم «الغرب»، عارِضًا لاستعمالاته الكثيرة في المضامير الفلسفيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والجغراسيّة. فهذا المفهوم الجغرافيّ البسيط هو، في الواقع، متعدّد المعاني، وهو كثيراً ما يستعمل على نحو مكثّف ينضح بالانفعاليّة، بل قل بطريقة وَسْواسيّة عُصابيّة، وذلك في أنماط مختلفة من الخُطب الفلسفيّة والأكاديميّة والميتافيزيقيّة (أي التي تُعنى بالمطلقيّات التي تتحكّم بحياة البشر) والتاريخيّة، وتلك المعنيّة بالهويّة والسياسة.

وكما سنرى، شهد كلّ من القرنين التاسع عشر والعشرين بشكل خاصّ استعمالاً مكثّفًا لهذا

المفهوم، حتى خِلْنا معها أنّه كان يلعب دور المحور المغناطيسيّ المستقطب المثير للانفعال في الفضاءات الذهنيّة المختلفة، وفي الرؤى والإدراكات الحسّيّة المتنوّعة للعالم، التي كانت آنذاك تحرّك أوروبا، وتثير فيها الاضطراب كلّما اشتدّ وَطِيْس التناقضات بين الرؤى التاريخيّة والفلسفيّة للعالم من جهة، وبين المشاعر القوميّة النقيضَة من جهة أخرى، مترافقًا مع بروز التفجيرات العنفيّة القويّة داخل القارة الأوروبيّة نفسها.

ويتطلّع الكاتب في الفصل الثالث من هذا الكتاب إلى أبعد من الميثولوجيّات الكبرى التي تغلِب على الخطاب التاريخيّ والفلسفيّ الهادف إلى تأكيد المُطْلقيّة لاستثنائيّة أوروبا، وقد حاول تحديد ماهيّة البذور العديدة التي أصبحت في ما بعد، ومنذ منتصف القرون الوسطى، مصدر قوّة هذه القارّة وسطوتها. ولقد جاءت الكثير من المكوّنات المهمة من مصدر هذه القوّة نتيجة «للتثاقف» (أي التفاعل مع معارف وحضارات الشعوب الأخرى) والتواصل المكثَّفَيْن والمستدامَيْن بنحو ملحوظ، اللذين قُدّر للأوروبيّين اختبارهما مع كلّ التنوّع الممكن من الشعوب والتقاليد والعادات السلوكيّة والعلوم والتقنيات ومستويات الحضارة خارج قارّتهم، غير أنّ هذا التنوّع الذي طبع التواصل، بقي في الغالب مجهولاً من المؤرّخين والفلاسفة، وخاصّة عندما كان يتعلّق بحقبة القرون الوسطى، حيث درجت العادة على توصيف القارة بكيان منغلق متقوقع كلّيًّا على نفسه، ومقيّد بالغطاء الحديديّ الذي كوّنته المسيحيّة الجماعيّة، والتي أمْلَت على الفرد تفاصيل سلوكيّاته اليوميّة، وخصَّصت له، بدقّة متناهية، مكانته الاجتماعيّة في تراتبيّة صارمة.

ويستعيد بالمناقشة في الفصل الرابع والتحليل عنوانًا تهكّميًّا لأحد مؤلَّفات برنارد لويس الأخير (Bernard Lewis)[1] الذي يتعرَّض فيه، بشكل عنيف، للعالم الإسلاميّ، فيجعل منه مثالاً للفشل التحضُّريّ المُدَوّي الذي لقيه في تكييف نفسه مع الفكر العلميّ الذي يميّز الحداثة الغربيّة.

كما يسلّط الضوء على -بحسب تعبيره- العبقريّة الشيطانيّة المؤذية والضارّة والفتّاكة التي ميّزت هتلر (Hitler)، فقد بدا أنّ مثل هذه المحاولة في فهم ما حصل لأوروبا لكي تتدهور حضارتها وأخلاقها من مستوى عبقريّة موزارت (نموذج الموسيقى) البرّاقة إلى مستوى الوحشيّة الهتلريّة هي أكثر أهمّيّة وشرعيّة من محاولة برنارد لويس في البحث السطحيّ المغرِض في أنماط الحضارة

[١]- المقصود هو المؤلَّف ذو العنوان «ما الذي حصل؟ الإسلام، الغرب والحداثة»:

Que s,est-il passe? L,islam, L,Occident et la modernite. Paris, Gallimard, 2002.

وهو صدر أوّلًا بالإنكليزيّة بعنوان:

What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response.

الإسلاميّة. وعمد -وفي الفصل الرابع عينه- إلى استعراض القصور البالغ في الشروحات الموضِحة لظهور النازيّة وطبيعتها.

وهكذا، يصبح من الممكن الدخول، في الفصل الخامس، في استكشاف معمّق لصدام الرؤى، التي كان يُنظَر من خلالها إلى العالم، والنُظُم الفلسفيّة التي مزّقت أوروبا في القرن التاسع عشر. ولقد كان من شأن هذا الصدام أن هيّأ، ليس لانتصار الأيديولوجيّة النازيّة فقط، بل لتدمير الطوائف اليهوديّة الأوروبيّة أيضًا، ويعود هذا الصدام في جذوره إلى رفض عنيد لإرث عصر التنوير والمبادئ التي انبثقت من رحم الثورة الفرنسيّة.

كما يُظهِر الفصل السادس من هذا المؤلَّف كيف أنّ الرسم الخياليّ والأسطوريّ الذي عكس صورة اليهوديّ، قد حُمّل كلّ آفات أوروبا وشرورها؛ إذ أجمعت الأطياف السياسيّة من أقصى يسارها إلى أقصى يمينها، على النظر إليه بوصفه كَبْشَ الفِداء والضَّحية القُربانيّة المهيّأة على الدوام للإهلاك، بغية تطهير أوروبا وتحريرها من الانحطاط المتربِّص بها؛ لذلك فإنّ إعادة قراءة تاريخ أوروبا هذه، تكشف بوضوح «حوليّة الإبادة اليهوديّة المعلَنَة» التي تظهر في تجلِّياتها الفظّة لدى قراءة كبار الفلاسفة وكتّاب الحداثة الأوروبيّة منذ القرن الثامن عشر.

هذا ما دفع الكاتب، في الفصل السابع من هذا المؤلَّف، إلى تقديم تقويم نقديّ لاضطرابات العالم الراهن الذي ورثناه من تاريخ اصطخب بالتقلّبات خلال القرنين المنصرمَيْن، ومن الديناميّات الأوروبيّة المختلفة التي طبعتهما والتي عمد إلى توصيفها على امتداد الفصول السابقة؛ وإذ حاول اجتناب الوقوع في شَرَك الخلاصات التوليفيّة والاختزاليّة الكبرى لهذا التاريخ التي عليها بُنيَ مفهوم «الغرب»، أَخضَعَ هذه الاضطرابات للتحليل مستعينًا بمفاتيح فهم جديدة تسمح بتناول تاريخ أوروبا بشكل مختلف، وذلك عبر نظام إدراكيّ آخر لقراءة تاريخ أوروبا وعلاقتها بالعالم، يجعلها أكثر فائدة وغِنَى من تلك التي تقترحها المباحث الرَّائجة، والنقاشات الخَطَابيّة الكبرى التي تقدّمها لنا وسائل الإعلام الغربيّة، وكذلك الخُطَب السياسية الجوفاء على بلاغتها التي ينطِق بها صُنّاع القرار في أوروبا.

وقد حاول في الفصل الثامن من الكتاب، رسم وتحديد الإشكاليّة التي يطرحها وجود أوروبا في العالم، والذي قد يمزّقه الخضوع للقواعد والأصول كما لعقيدة الانتماء إلى الغرب أو الغَرْبويّة (occidentalisme). حيث باتت سَطوَة الولايات المتحدة الأميركيّة الثقافيّة، والسياسيّة، والعسكريّة هي اليوم العنصر المحرِّك من جهة، والتأكيد على الاستقلاليّة، بل الانعتاق من هذه العقيدة التي

كانت السبب وراء الكثير من الدمار والخراب، والعديد من التفجيرات العنفيّة داخل أوروبا كما خارجها، من جهة أخرى. ولقد حاولت هنا توصيف الهُوّة المتفاقمة التي تباعد بين الخطاب المتباهي والخاوي لصنّاع القرار السياسيّ والنُخَب التي تدور في فلكهم، وبين واقع المشكلات التي تهزّ العالم وتستثير قلقه واهتياجه. وعلى الرغم من حيويّة الفكر النقديّ، المعنوي والأخلاقيّ والسياسيّ في أوروبا كما في الولايات المتّحدة، يبدو عالم صُنّاع القرار على ضِفَّتَيْ المحيط الأطلسيّ كأنّه مصاب بالانطوائيّة وما يرافقها من وهن الفكر ومراوحته على نحو دائريّ مقفول على نفسه، مما يؤدّي إلى هذا الخطاب الأجوف والهُجاسيّ والتهجُّميّ العُدوانيّ على السواء. زِدْ على ذلك أنّ سلام العالم ما كان أبدًا بهذه الهشاشة التي نراها ماثلة فيه اليوم.

وأخيراً، في خاتمة هذا المؤلَّف، حاول المؤلّف تخيّل المخزون الهائل والمدهش من الطاقة الإبداعيّة الكامنة لإعادة إطلاق نهضة الثقافة والفكر في أوروبا، لو أنّها تخلّت عن الدوغمائيّة والتقليد المتحكّمة بالخطاب الغَرْبَوِيّ. وفي الخاتمة عينها، يشرح كيف حان الوقت لوضع حدّ لحرب الأفكار والمثُل والأوهام الطوباويّة، وخاصّة عقيدة المحافظين الجدد السائدة والنيوليبراليّة المسؤولتينْ عن الأزمة الاقتصاديّة والماليّة التي نتخبّط فيها، كذلك فإنّني أحاول أن أظهر كيف لإزالة الحواجز التي تكبّل الفكر الأوروبيّ، ولانعتاقه من العقائد الجامدة، ولانفتاحه على الثقافات والفلسفات الأخرى في العالم، أن تُساهم إسهامًا كبيراً في بناء عالم أفضل أو، في أيّ حال، أكثر استقرارًا وسكينة.

تفصيل المحتوى

لقد عالج في الفصل الأوّل تحت عنوان: الوظائف العقائديّة والأسطوريّة لمفهوم الغرب الموضوعات الآتية: في منابت الفكر الغَربويّ، أركان العقيدة الغربويّة أو الآلة الصانعة للغيريّة الجذريّة، البيان الآريّ لإرنست رينان (Ernest Renan)، الحاجة إلى عدوّ مرعب لدوام حياة الأسطورة، «الأسطورة المؤدْلَجة» أو الحاجة إلى الجذور ونقاوة الأصول، بلورة الأفكار الطوباويّة ونظم إدراك العالم المتناقضة، اعتراضات غربيّة على الخطاب الغَرْبَوِيّ، المعادلة الأسطوريّة: أوروبا= الحداثة = الغرب= مستقبل العالم، الفكرة الأوروبيّة أسطورة أم واقع؟

وأمّا في الفصل الثاني، فقد تحدّث عن تحرير التاريخ الأوروبيّ من شوائبه؛ وبناء أسطورة الغربويّة، من خلال بيان: الوظيفة المولّدة لتاريخيّة مطلقة، دور أسطورة الحملات الصليبيّة في الذاكرة الأوروبيّة، «الالتباسات» الكائنة في مفهوم الحضارة في الثقافات الأوروبيّة، التناقضات

في اختيار اللحظات التأسيسيّة المختلفة، مثال ملفت عن تحرير التاريخ من شوائبه لدى فرنسوا غيزو (François Guizot)، الارتقاء بالقرون الوسطى المسيحيّة إلى مصاف الأسطورة التكوينيّة للغرب في فكر جاك لو غوف (J. Le Goff)، البحث عن «الأعجوبة» الغربيّة في اعتناق المسيحيّة أو في الارتداد عنها بشأن الحضارة الغربيّة، في منابت «الثورة» الغليليّة إرث المسيحيّة المؤسّساتيّة المعقّد، أسطورة الفردانيّة الأوروبيّة، عودة إلى عبقريّة المسيحيّة، واقع تشرذم أوروبا والتنمية غير المتوازنة لدولها، تكون أعجوبة الحداثة الأوروبيّة استثناء في التاريخ البشريّ.

وفيالفصل الثالث بحث تحت عنوان: الموّرثات المعقّدة لقوّة أوروبا المستقبليّة، الدور المَنْسيّ للمدن الإيطاليّة والباباويّة، وولادة الرأسماليّة الكبرى منذ القرن الثاني عشر، والميل إلى الاستكشاف وإقبال الكنيسة على تشجيعه، إخصاب الثقافات الأوروبيّة عبر تلاقحها بالثقافات الأخرى، والرؤى الجديدة في العالم في منابت الحداثة الأوروبيّة، وأسطورة «الثورة المزدوجة» العلميّة والرأسماليّة في أوروبا، وتعظيم وجه البورجوازيّ الرأسماليّ وشيطنته، وأهمّيّة تدفّقات الهجرة الاغترابيّة في النجاح الاقتصاديّ، تمزّقات التاريخ الأوروبيّ وأسطورة وحدة الغرب.

وقارن في الفصل الرابع بين موزارت إلى هتلر، فتركّزت أبحاثه هنا حول: الموسيقى وجه أوروبا المجيد المنسيّ، وأهمّيّة الموسيقى المقدّسة والأوبرا في عصر التنوير، وأوبرا «النّاي المسحور» لموزارت قمّة وجه أوروبا العظيم، من الناي المسحور إلى «هلاك فاوست» الأبديّ: الانقطاع، ونهاية الأعجوبة الموسيقيّة في أوروبا، وغموض الانقطاع النازيّ في تاريخ أوروبا، والتفسيرات المجتزأة والمقيّدة للنازيّة، ضعف عمليّة وضع النازيّة في سياقها التاريخيّ، تبرير النازيّة بوصفها سدًّا في وجه الشيوعيّة والبلشفيّة، المراجعة الرؤيويّة التحذيريّة للذات لدى توماس مان، تحليل متبصّر للعلاقات بين الليبيراليّة الاقتصاديّة والفاشيّة.

وركّز في الفصل الخامس على صدام رؤى العالم في أوروبا، حيث تحدّث عن غياب ألمانيا عن توسّع أوروبا في العالم، والقرف من الحضارة «الغربيّة»، ومعادلة الانحطاط الحتميَّة بحسْب سبنغلر، وكونيّة الإنسان أم خصوصيّة المجتمعات العضويّة، والانجذاب نحو الفلسفة الألمانيّة والنجاح الصاعق لفكر نيتشه، والعودة المتنكّرة للسكولاسيّة في تكوين فلسفات القرن التاسع عشر وشروحاتها، وتصدير اضطرابات القرن الرومانسيّ إلى روسيا، أنصار البقاء على التراث السلافيّ (السلافيّون) ضدّ أنصار التحديث على طريقة أوروبا الغربيّة (الغربيّون)، دوستويفسكي وروح الشعوب، وحروب أهليّة وحشيّة، تنامي النازيّة وتفجّر عالميّ.

وتحدّث في الفصل السادس عن يوميّات أوروبيّة في الإبادة اليهوديّة المرتقبة، فعالج أزمة الأيديولوجيّا الألمانيّة وتعميم الفكر المعادي للتنوير، واليهوديّة المعتَبرة كمروِّج للمادّيّة الحديثة، والأنثروبولوجيا العنصريّة تصطنع صورة سلبيّة حديثة لليهوديّة، بيئة تلهم تولّد العقيدة الصهيونيّة، وقوع الحداثة الأدبيّة في الشّواق إلى النظام القديم، اليهوديّ، كبش محرقة الأهواء الفلسفيّة والسياسيّة في القرن التاسع عشر، الرُّهاب الذهانيّ الهَذَيانيّ ضدّ اليهوديّ الكوزموبوليتانيّ وضّد البَلشفيّة، تدهور الفضاء الذهنيّ الأوروبيّ يجعل من نجاح هتلر أمرًا ممكنًا؛

وأمّا الفصل السابع فقد خصّصه للحديث عن عالم القرن الواحد والعشرين كما اصطنعه تاريخ أوروبا لناحية إخفاق أوروبا الديغوليّة، وصعود النيو- ليبراليّة الأنكلو- سكسونيّة المظفَّرة.

بطاقة الكتاب

اسم الكتاب: تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب La construction d’une histoire

تأليف: الدكتور جورج قرم.

تعريب عن الفرنسيّة: د. رلى ذبيان

مراجعة وتدقيق: المؤلّف نفسه.

بيانات النشر: ط١، دار الفارابي، بيروت، لبنان/ ٢٠١١م/ (٤٤٣ صفحة، حجم الصفحة ١٧-٢٤).